تسابقوا إلى النجاح في الامتحانات

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ٢٠٠٩/٥/١٥م

ترتيب الأولويات هو من فِطنة المؤمن، وعندما يفهم الشاب هذه القاعدة المهمة يُدرك أهمية المرحلة التي يعيشها من آنٍ لآخر، ولَطالما تحدّث بعض الشباب - لاسيما وهم في مرحلتهم الدراسية - عن اهتمامات كثيرة تجعلهم يتأخرون في أداء واجباتهم التي تطلبها مرحلة التعليم.

وكم سمعنا عن شبابٍ يجعلون أولويتهم في مرحلة التعليم الدعوةَ مثلاً، أو ما يشبه ذلك، فتُفاجأ بعد ذلك أنهم أصبحوا من المُتأخّرين والمُهمِلين، وأصبحوا من الفاشلين في مرحلتهم التي يعيشونها تعليمًا وتطويرًا.

من هنا أحببت - والطلبة الشباب على أبواب الامتحانات في العام الدراسي - أن أجعل هذه الحصة الخاصة من أجل تأكيد ما قدّمته للعناية بحقّ الوقت، وهو درسٌ نستفيد منه جميعًا، لأنه لا يختص بالشباب وحسب، بل يختص بكل من يعنيهم شأن الشباب، وهو أيضًا يُركِّز على ما قدمناه من القاعدة المهمة وهي الاعتناء بحق الوقت، والانتباه إلى المرحلة، سواء كان هذا في العِلم أو العمل أو في غيره.

ومن أجل هذا أقول: ليس من المحمود أبدًا أن نرى الشباب المسلم الذين يرتادون المساجد يتأخرون في دراستهم أو درجاتهم، فهذا يتنافى مع هوية المسجد، ويتنافى مع هوية الإسلام، فالإسلام يريد المسلم سابقًا، ويريد الشاب متقدمًا، ويريده في الصف الأول دائمًا يتقدم كلَّ الصفوف.

وعندما نتحدث عن العِلم والتعليم والتعلّم، وعندما نقرع أبواب الامتحانات بالجِد والاجتهاد، فلابد من كلمةٍ في المقدمة تُذكرنا بقيمة العِلم في الإسلام.

ولقد سألني مراتٍ كثيرة أكثرُ من سائل يأتي من الغرب: هل هناك من تناقض بين العِلم والإسلام؟

فقلت: إنها قضية مُضحِكة، فهذا التناقض لا نعرفه في ديننا، لأن ديننا هو الذي يدعو إلى العِلم، وهو الذي يؤسس للعِلم، وأول كلمة أُنـــزلت على نبينا: **(اقْرَأْ)**، وكم تكررت في القرآن كلمة: **(فَاعْلَمْ)**، **(اعْلَمُوا)**، **(انْظُرُوا)**، **(يَعْقِلُونَ)**...

إنه دينٌ يؤسس للعِلم، ويؤسس للتفكُّر، ويؤسس للتعقُّل...

وهكذا فلا يمكن لنا في حال من الأحوال أن نسمح بانتقال التناقض من واقعٍ غربيٍّ فرضته طقوس معينة في مرحلة تاريخية، ولا نسمح بتعميم هذا، ليصل إلى ديننا الذي يدعو إلى العِلم، وينهض بأبنائه ليكونوا سادة الدنيا في العِلم.

إننا حين نرى في واقع المسلمين وواقع الشباب تأخرًا في البحث أو في العِلم، فهذا لأن الإسلام مع الأسف لا يُفهم فهمًا صحيحًا، إنما يُفهم وعظياتٍ توجِّه الإنسان إلى الغيب وتصرفه عن الواقع، والإسلام كما أنه يربط روح الإنسان بالغيب، فكذلك يؤسس لحركةٍ فاعلة مُنتِجة على أرض الواقع.

العِلم قيمة كبرى في الإسلام، وعلى الطالب وهو يتهيأ للامتحانات أن يتذكّر قيمة العِلم في الإسلام، فمنـــزلة العِلم عظيمة عند الله تبارك وتعالى.

ربّك الذي خلقك، والذي علّمك، والذي أرشدك، اعتبَرَ العِلمَ وقيمتَه، فكيف لا تعتبر أنت وأنت عبده، وأنت مخلوقُه، وأنت مملوكُه؟ كيف لا تعتبر القيمة التي اعتبرها ربّك؟

ألم يقل سبحانه وتعالى مُكرِّمًا كلَّ من يسير في طريق العِلم:

{ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ } [المجادلة: ١١]؟

إذًا: جعل ربّنا تبارك وتعالى الإيمان مع العِلم، فلا يمكن للإيمان أن يسير مِن غير العِلم، ولا قيمة للعِلم من غير الإيمان.

وإذا أراد الإنسان أن يطير إلى الدرجات العليا، فلابد أن يطير بجناحي الإيمان والعِلم.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: **(فَقِيهٌ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ)**.

وانظروا أيها الإخوة، فالعبادة التي تنقلك إلى الروحانية وتَصِلُك بالغيب لا قيمة لها حين لا تقترن بالعِلم.

وبعد ذلك تذكَّرْ أيها الطالب أن العوالم الغيبية المُكرَّمة كالملائكة الذين هم عبادٌ مُكرَّمونَ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، تذكّر أن هذه العوالم التي عرّفها الله سبحانه وتعالى الحقائقَ على ما هي عليه، تذكّر أنها تُعظِّم العِلم وتُكرِم العِلم.

واقرأ حديث النبي صلى الله عليه وسلم: **(إن طالب العِلم تحفُّه الملائكة بأجنحتها، ثم يركب بعضهم بعضًا حتى يبلغ السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب)**، فالملائكة تزدحم في مجلس العِلم الذي يكون العِلم فيه سيدًا، إلى درجة يركب بعضهم بعضًا، فحين لا يبقى مكان في المجلس، يصبح هناك طبقات من الصفوف بعضها فوق بعض إلى عَنان السماء.

وأيُّ ازدحامٍ هذا الذي لا يعرفه بنو البشر؟

ازدحام الملائكة على مجلس العِلم ازدحامٌ لا يعرفه أبناء آدم، ولا تعرفه البشرية، إنه ازدحامٌ يصل إلى درجة الصفوف الطابقية من أجل حضور مجلس العِلم.

هذه هي قيمة العِلم المُجرَّدة المطلقة الكبرى في ديننا، الدينِ الإسلاميّ.

وبعد هذا أُقدّم ثمانية نصائح، لعلها تكون كالأبواب - وقد تعلّمنا أن أبواب الجنة ثمانية - أقدّم هذه النصائح لطلبتنا وهم يتهيؤون للامتحان.

وأقدّم هذه النصائح لكل طالب عِلم، فقد لا يكون طالبُ العِلم طالبَ جامعة، وقد لا يكون طالبَ مدرسة، لكنه طالبُ عِلم، وطالب العِلم لا يتخرّج إلا عندما يخرج من هذه الدنيا محمولاً، فعندما يكون طالبَ عِلمٍ يتخرّج.

هكذا يفهم المسلمُ رحلةَ العِلم.

النصيحة الأولى التي أقدّمها أقول:

١ - اكتب لتحفظ: وهذه كلمة مهمة تداولها أهل العِلم، وكان الإمام الشافعي رحمة الله تعالى عليه يقول: **"من أراد أن يحفظ فليكتب".**

وكلما استعملتَ من حواسّك أكثر، وصلتْ معلوماتُ الحفظ إلى ذاكرتك بشكل مُتمكِّن، وبشكل يكون راسخًا في ذاكرتك أكثر.

ومن أكثر الوسائل التي تُعينك: أن تنظر، وأن تسمع، وأن تكتب، فإذا اشتركت الحواس عندها تترسّخ المعلومة.

وبعض الطلبة يُسمعون بأصواتهم آذانَهم، وهذا جيد، ولكن الأولى والأثبت للمعلومة أن تكتب.

وقد ورد في سنن الدارمي عن منصور السلمي قال: قلت لإبراهيم النخعي (وهو من أئمة العِلم): إن سالمًا (الذي كان يروي عن نافع عن ابن عمر) أتم منك حديثًا، أي: يحفظ أكثر مما تحفظ، ويتقن ويضبط أكثر مما تضبط، وهم يقولون هذا لإبراهيم النخعي رحمه الله، فأجابهم إبراهيم: إن سالمًا كان يكتب.

وهكذا فإن النصيحة الأولى التي أقدّمها لطالب العِلم هي: **لا تستغنِ عن الكتابة.**

٢ - اجمع همّتك على فهم العِلم، ولا تلتفت للشواغل الأخرى مهما كانت مهمة: على طالب العِلم أن ينسى كل الشواغل، فإذا وُجد في ذهنك أكثر من شاغل لا أمل في تعلمك أيها الطالب، وإذا أردت أن تجمع مع تعلّمك شاغلاً آخر لن تحظى بالتعلّم، فلابد من حذف الشواغل كلها عن قلبك وعقلك، فإذا جمعت همّتك على العِلم وحده، وقطعت العلائق بينك وبين الشواغل، تستطيع عندها أن تملك المعلومة وأن تكون فيك متمكنة، والله سبحانه وتعالى أخبرنا في نص القرآن فقال: {مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ} [الأحزاب: ٤] أي أن الإنسان لا يستطيع أن يعي إلا ما توجّه إليه في الأولوية، فحين تتوجه إلى العِلم وتجمع همتك على ما تريد تعلّمه تستطيع أن تكون ناجحًا ومتفوقًا.

وقد يعينك على جمع الهمة - لاسيما في الأوقات التي لا يكون لك فيها دوام درسي في النهار - أن تغتنم فرصة الليل التي يكون فيها الوقت ساكنًا وهادئًا، فكم من طلبة العِلم الذين تفوّقوا وأدركوا ما أدركوه بسبب أنهم لا يفوتون فرصة هدوء الليل وسكونه.

وقد رأيت عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: **"تَدَارُسُ الْعِلْمِ سَاعَةً مِنَ اللَّيْلِ خَيْرٌ مِنْ إِحْيَائِهَا".**

وربما يتوهم طالب الدرس أو طالب العِلم أن عليه أن يأخذ فرصةً لقيام الليل في الصلاة، وهو يجهل أن ما يفعله وهو يتعلّم أفضلُ من الصلاة، وأن قيام الليل بالعبادة لا ينحصر في نوع واحد وشكل واحد هو الصلاة، فالتعلّم عند الله تبارك وتعالى هو أعلى في الثواب من الصلاة.

فعلى طالب العِلم أن يكون منهمكًا في تعلّمه كما كان الشافعي رحمة الله تعالى عليه يفعل، فقد كان يقوم الليل كله وهو يستنبط من حديثٍ واحدٍ من أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم، فكان يغتنم فرصة الليل، فيُصلي العشاء ثم يضطجع أو يقعد ويستنبط ما يستنبطه من حديث واحد، ثم يقوم إلى صلاة الفجر فيصليها بوضوء العشاء.

هكذا كان سلفنا رضي الله تعالى عنهم.

٣- اجتهد أن تكون نتائجُ امتحاناتك في السابقين الأوائل: لتعبِّر عن هوية إسلامك، فهي تطلب منك أن تكون من السابقين، أما قرأت في القرآن: { وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ، أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ } [الواقعة: ١٠]؟

أما رأيت اقتران السبق بالقُرب؟

إذًا: أنت من خلال الهوية الإسلامية مُطالبٌ أن تكون سابقًا، وحين تكون متأخرًا فأنت تتناقض مع هويتك الإسلامية.

ويسألني كثيرٌ من الشباب: ما الورد الذي تنصحني أن أكرره؟

وأقول له: وِردُك هو كتابُك الدرسيّ.. وِردك أن تتخرج بالمعدل المُتفوِّق الذي تعبر من خلاله عن هوية إسلامك.

٤- طهِّر وعاء العِلم من المُكدِّرات الظلمانية: فالله سبحانه وتعالى لفت انتباه الدارس والمُتدبِّر إلى هذا الجانب المهم بقوله سبحانه: { أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا } [محمد: ٢٤] فأفهَمَنا أن الذي منع التدبُّر والفهم إنما هو تراكم الظلمات وتراكم الذنوب، فالذنوب تُحدث على القلب رَينًا وغطاء، فيمتنع الحفظ، ويمتنع الفهم، ويمتنع التدبُّر، فإذا لم تُهيّئ وعاء العِلم الذي هو قلبك و لم تُجنِّبه المُكدِّرات الظلمانية لن تكون مُتفوقًا.

قال الشعبي: إنما كان يَطلُب هذا العِلم مَن اجتمعت فيه خصلتان: العقل والنُّسُك.

أي: هو طاهر وعاقل، طاهرٌ من الذنوب، مُتفتِّحٌ في عقله وتفكيره، كما تقدّم في الآية: { يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ } ، فيرتقي العقل مع الطهارة، فإذا فقدت التعقُّل من طريقه الصحيح، أو فقدت الطهارة التي تجعلك نورانيًّا بعيدًا عن كل المُكدِّرات الظلمانية، لن تحظى بالعِلم، وعندما تملك العقل وتملك الطهارة من العيوب والذنوب، عندها تستطيع أن تكون عالمًا.

ويُنسب إلى الشافعي قولُه:

شكوتُ إلى وكيعٍ سوءَ حفظي		فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العِلم نورٌ		ونورُ الله لا يُهدى لعاصي

٥ - لا تحرص على نجاحٍ مع جهل: ليكون تعلُّمُك نافعًا.

وهناك بعض الطلبة قد احترفوا القاعدة التي تقول: المطلوب هو أن تصل إلى نتيجة في الدرجات، وأهمل الجانب العِلميّ، فهو يريد ورقةً قد كُتب عليها: العلامة والدرجة كذا.. ولا يريد العِلم الذي يُنتج تطبيقًا، والذي يُخرج الإنسانية من ظلماتها، والذي يُخرج البشرية من تخلّفها.

أنت لست بحاجة إلى درجة، ويمكن للأستاذ الذي يضع الأسئلة إن كان عالِمًا بحقّ أن يختبر بالسؤال عِلمَ الطالب، لكننا لا نستطيع أن نُعمم هذا على كل من يضع الأسئلة، فهناك من يضع الأسئلة مُختبِرًا حفظ الطالب لا عِلمه، وشتان بين الحفظ والعِلم، فالعِلم يُنتج تطبيقًا، ويُنتج حيوية، ويُنتج فاعلية، لكن الحفظ لا يتجاوز كونَه يُحوّل الإنسان إلى آلة ناسخة لا تقدر على أن تُقدّم تطبيقات عملية.

بهويتك الإسلامية احرص على أن تتعلّم، ولا تحرص على نجاح مع جهل.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(سَلُوا اللَّهَ عِلْمًا نَافِعًا، وَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ)**.

وكم تختصر هذه الكلمةُ (سَلُوا اللَّهَ عِلْمًا نَافِعًا) القضيةَ التي نتحدّث عنها، فإذا كان العِلم لا تطبيقات له، ولا نفع له، ولا نجد آلية عملية تحوّله إلى واقع، فإنه يبقى مُختزنًا ولا يمكن أن يتحول إلى نفع.

وكأنني أشعر من خلال هذا اللفظ (العِلم الذي لا ينفع) أن النبي صلى الله عليه وسلم يشير بهذا إلى الذي يحفظ دون أن يكون قادرًا على إيجاد التطبيقات.

٦ - انتبه إلى قيمة الوقت: فالدقيقة التي تمر بك ثمينة جدًّا، فإياك أن تهدر الوقت.

أنت اليوم تملك رأسَ مالٍ كبير هو الوقت، فانتبه إلى قيمة الوقت الثمينة، ولا تضيّع هذه القيمة.

وأضرب لك مثالاً من واقع سلفنا الصالح:

فقد ذهب جابر بن عبد الله الأنصاري إلى مصر ليُقابل مَسلمة بن مُخلِّد، وهما صحابيان كريمان، ومسلمة انتقل من المدينة إلى مصر، وسمع جابر بن عبد الله الأنصاري أن مسلمة سمع حديثًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسافر من المدينة المنورة إلى مصر، وكان مسلمة في العِلِّيّة (أي في الطابق الأعلى).

فقرع الباب، وأطَلَّ عليه مسلمة من العلّيّة وقال له: مرحبًا بجابر، أَنـــزلُ أو تصعد؟

فقال: لا تنـــزل ولا أصعد، حديثٌ بلغني أنك ترويه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ستر المؤمن، فجئت أسمعه، أي: أريد أن أتحمّل هذا الحديث لأرويه.

فها هو مسلمة يُدرك قيمة الوقت عند جابر، إنه سافر من المدينة إلى مصر يطلب العِلم بحديث واحد سمعه مسلمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأراد مسلمة أن ينـــزل جابر عنده ضيفًا، وأن يرتاح وأن يكون بينهما من المسامرة ما يكون، لكن جابر قال: لا، وأنت في العِلِّيّة أسمعني، فأنا لا أريد أن أضيّع الوقت.

قال: حديث بلغني أنك ترويه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ستر المؤمن، فجئت أسمعه.

قال مسلمة: قلت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(من ستر على مؤمن عورة، فكأنما أحيا موؤودة)**، فضرب جابر بن عبد الله الأنصاري بعد أن سمع الحديث بعيره، ورجع إلى المدينة.

أيُّ قيمة للوقت هذه؟

يُمضي الأيام الطويلة من المدينة إلى مصر ليسمع حديثًا؟

كان هذا مما لابد منه.

واليوم اختُزل الزمن وأصبح الإنسان قادرًا أن يختصره بوسائل النقل الحديثة، فهو كان يمتطي بعيره، لكنه مع كل هذا كان يحرص على قيمة الوقت.

حدّثني أستاذي في الفقه فقال: وأنا طالب في الخسرفية (أي في الكلية الشرعية): كان بعض أصدقائي يطلب زيارتي وأنا في غرفتي، فأقول له: عندي استعداد أن ألتقي معك مدة خمس دقائق، فقال لي (والشيخ تجاوز المائة وهو حيٌّ يُرزق): كان يدخل صديقي فأضع الساعة، فإذا صار الوقت خمس دقائق و لم يخرج أُطرق في الكتاب ولا أستمع إليه بعد انتهاء الدقائق الخمسة.

اذهب واسأل هذا العالِم في الفقه، تجد أنه في حافظته (وقد تجاوز المائة) يُذهلك لكثرة ما يُدقق في المسألة، في الوقت الذي صار فيه أمثالُه في أرذل العمر، لكي لا يعلم بعد عِلم شيئًا.

قال: إذا انتهت الخمس دقائق أُطرق في الكتاب وكأنه غير موجود.

بهذا الجِد دخل المدرسة (كما أخبرني) وعمرُه سبعة عشر عامًا، وكان أمّيًّا لا يُميز بين الاسم والفعل، وأصبح في أوائل المتفوقين بالجِد والمواظبة، وقال لي مرة: إن سبب العِلم ليس الذكاء، إنما هو المواظبة.

فالسبب الأكبر للتعلُّم ليس هو الذكاء، إنما هو المواظبة، فالذي يواظب على التعلُّم، ويكون في حالة من الجدية التامة، يصل إلى ما يتمنّاه.

٧- أوجد يا طالب العِلم توازنًا بين حاجة جسدك إلى الطعام والنوم وواجباتك في استيعاب العِلم:

فحينما ينكسر هذا التوازن سيعود عليك بالوبال في العاقبة.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(وَإِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا)** رواه ابن ماجة.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأحد أصحابه: **(ما لي أرى جسمك ناحلاً؟)** قال: يا رسول الله، ما أكلت طعامًا من نهار، فقد كان يُديم الصيام، أي: ما أكلته إلا بالليل.

ماذا أجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(قال: من أمرك أن تُعذِّب نفسك؟)**، فما هكذا دين الإسلام، وما هكذا يؤسس الإسلام للنهضة، فالإسلام دين التوازن الذي يوازن بين المادة والروح، فهو يرفض الروحانية التي تكون على حساب المادة، ويرفض المادة حينما تكون على حساب الروح، ويوجد توازنًا فريدًا بين المادة والروح.

٨- لا تفكِّر في الوصول إلى الدرجات بالغِش: فهو يتناقض مع هويتك الإسلامية، وإن تيسّر ذلك لك، وإن كان هذا مُقدّمًا لك على صحيفة من ذهب.

إنه يتناقض مع هويتك الإسلامية، فالنبي صلى الله عليه وسلم قال كما يروي الإمام مسلم في صحيحه: **(من غش فليس مني).**

إنه صلى الله عليه وسلم يتبرّأ من الغشاشين، وكيف ترضى أن يتبرّأ منك رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

أختصر وأختم بِعَدّ النصائح الثمانية، من أجل أن يحفظها طالب العِلم:

١- اكتب لتحفظ.

٢- اجمع هِمّتك على فهم العِلم، ولا تلتفت للشواغل الأخرى مهما كانت مهمة.

٣- اجتهد أن تكون نتائج امتحاناتك في السابقين الأوائل، لتُعبّر عن هوية إسلامك.

٤- طهِّر وعاء العِلم الذي هو قلبك من المُكدِّرات الظلمانية.

٥- لا تحرص على نجاحٍ مع جهل، ليكون تعلُّمك نافعًا.

٦- انتبه إلى قيمة الوقت الثمينة ولا تضيّعها.

٧- أوجد توازنًا بين حاجة جسدك إلى الطعام والنوم وواجباتك في استيعاب العِلم.

٨- لا تفكّر في الوصول إلى الدرجات بالغِش، لأنه يتناقض مع هويتك الإسلامية.

إن أنت حرصت أيها الطالب على تطبيق هذه النصائح، أرجو من الله سبحانه وتعالى أن يجعلك في الناجحين والمتفوقين.

رُدّنا اللهم إلى دينك ردًّا جميلاً، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.